الحلقة الثالثة

نزار قباني

كنت أقول كما قال قبلي كثيرون.. وقد يقول بعدي كثيرون: بأن الإكثار في حياة الشاعر يهبط بشاعريته وشعره.. ولا يرقى بهما، وأنه يدخله في دائرة التكرار، ويسقط عن ألفاظه جمالها وجدتها.. وعن معانيه صدقها وحرارتها وقوة تأثيرها التي تمثل هدف الشعر وبوصلة كل شاعر..

وأظنني كنت في هذا متأثراً بحوليات الجاهلية.. أو المعلقات السبع أو العشر.. وبتلك القصائد الفريدة في الشعر العربي عموماً كقصيدة دوقلة المنجليّ المعروفة بـ «اليتيمة» لتفردها، التي قال فيها:

هل بالطلول لسائل ردُّ
أم هل لها بطول تكلم عهدُ؟

أو قصيدة «الحصري».. القيرواني الكفيف:

يا ليل الصبُّ متى غدهُ
أقيام الساعة موعده
رَقَدَ السمارُ و
أرَّقه أسفٌ للبين يردده

[illegible]

مما يرعاه ويرصُدهُ

كَلِفٌ بغزال ذي هيفَ

خوف الواشين يشرّدُه

ولكنني على وجه اليقين كنت متأثراً في هذا الرأي، أو هذا اليقين الذي انتهيت إليه.. بثلاثة من الشعراء المقلين إلى أبعد الحدود والكبار إلى أبعد مدى: الشاعر والسياسي الفرنسي: (لامارتين).. الذي مات عن ديوان واحد هو: «خواطر شعرية».. ضم أربعاً وعشرين قصيدة، كان من بينها قصيدة «البحيرة» التي سافرت إلى أصقاع الدنيا، وقرأها الملايين بكل اللغات، والشاعر المهجري الرائد «جُبران خليل جبران».. الذي مات عن ديوانين هما: «عرائس المروج» و«رمل وزبد»، وأخيراً نيزك الشعر العربي في مصر: الشاعر والفيلسوف والفنان كامل الشناوي.. الذي مات عن ستة وخمسين عاماً وديوان واحد من الشعر هو: ديوان «لا تكذبي»، الذي ضمنه وطنياته أيضاً.. إلا أن عدد قصائد الديوان لم تزد عن ستة وعشرين قصيدة، وقد لحن وغنى معظمها كبار الملحنين والمطربين.. من عبدالوهاب إلى أم كلثوم إلى فريد الأطرش إلى عبدالحليم حافظ، حتى حفظ الناس كل تلك القصائد.. ورددوها وتغنوا بها. فمن لا يحفظ قصيدة «لا تكذبي» و«عدت يا يوم مولدي».. ومن لم يغن معه نشيد «الحرية»، و«أنا الشعب»؟

* * *

نعم. استقر يقيني، بأن الإكثار في حياة الشاعر.. ليس حياةً له.. بل وربما تتحول دواوينه الكثيرة إن كانت عشراً أو عشرين إلى مقبرة له، إلى إن كانت قصتي مع أحد أعلام الشعر في القرن العشرين.. الشاعر المبدع: «نزار قباني» الذي قلب موازيني واستقراري رأساً على عقب.. ولكن بصفة استثنائية دون شك، إذ ليس كل الشعراء المكثرين كـ «نزار».!! فليسوا هم في إبداعه الفذ.. وليسوا هم في مفرداته وقاموسه.. وليسوا هم في حداثة وعصرية معانيه.. وليسوا هم في جرأته إن كتب عن الحب والعواطف.. أو إن تحدث عن الوطن ومآسيه.

لقد كتب سبعة عشر ديواناً كان أولها «قالت لي السمراء».. وكان آخرها «أشعار خارجة على القانون»، إلى جانب أعماله الشعرية «السياسية» التي تضمنها الجزء الثالث من أعماله الشعرية الكاملة في أكثر من ستمائة صفحة..

كان شاعراً مكثراً.. ولكنه كان مختلفاً في ألفاظه.. وفي معانيه.. وفي صوره الشعرية الجديدة: الرائعة والباهرة التي ترى وتلمس وتعيش فيها روح العصر بكل أجوائه ومناخاته. لقد بدأ في أوائل الأربعينات من القرن الماضي شاعراً في بلاط المرأة: يصفها ويتغزل فيها. يخاصمها ويصالحها. يدافع عنها ويقسو عليها، ويشقى ببعدها ويحن إلى قربها.. وقد استغرقه البقاء في بلاطها على هذا المنحى لأكثر من عشرين عاماً، ولأكثر من عشرة دواوين.. فلم يستلفتني كل ذلك الشعر الذي كتبه عن المرأة.. وكل ذلك الضجيج الذي أثاره حولها وحول نفسه حتى اتهم بالخلاعة

والميوعة وما هو أكثر، لكن كان يستوقفني في ذلك الشعر.. بعض تلك الصور التي لم تغنَّ كقوله عن المناضلة الجزائرية «جميلة بو حَيْرَد»:

- الاسم: جميلة بو حيرد
  تاريخٌ.. ترويه بلادي
  يحفظه بعدي أولادي
- تاريخ امرأة من وطني
  جلدت مقصلة الجلاَّد
- امرأة دوَّخت الشمس
  جَرَحَتْ أبعاد الأبعاد
- يذكُرها الليلك والنرجس
  يذكرها.. زهرُ الكبَّادِ
- ما أصفر جان دارك فرنسا
  في جانب جان دارك بلادي

مضافاً إليها بعض تلك الصور المفتاة كقوله في قصيدته «أيظن»:

(حمل الزهور إليَّ.. كيف أرده
وصبايا مرسوم على شفتيه
ما عدت أذكر والحرائق في دمي
كيف التجأت أنا إلى زنديه

خبأت رأسي عنده.. وكأنني
طفل أعادوه إلى أبويه
حتى (فساتيني) التي أهملتها
فرحت به.. رقصت على قدميه
سامحته وسألت عن أخباره
وبكيت ساعات على كتفيه
وبدون أن أدري تركت له يدي
لتنام كالعصفور بين يديه)

وكقوله في «ماذا أقول له».. قصيدته الأخرى المغناة:

(ربَّاهُ أشياؤه الصغرى تعذبني
فكيف أنجو من الأشياء ربَّاهُ؟
هنا جريدته في الركن مهملةٌ
هنا كتابٌ معاً.. كنا قرأناه
على المقاعد بعض من سجائره
وفي الزوايا بقايا.. من بقاياه
ما لي أحدّق في المرآة.. أسألها
بأي ثوب من الأثواب.. ألقاه؟
أأدعي أنني أصبحت.. أكرهه
وكيف أكره.. من في الجفن سكناهُ)

أو كقوله في قصيدته المغناة.. الجديدة فكرة وبناء «قارئة الفنجان»:

(بحياتك يا ولدي، امرأة
عيناها سبحان المعبود
فمها.. مرسوم كالعنقود
ضحكتها.. موسيقى وورود
لكن سماءكَ ممطرةٌ..
وطريقك.. مسدودٌ.. مسدود
فحبيبة قلبك.. يا ولدي
نائمة في قصر مرصود
من يطلب يدها.. من يدنو
من سور حديقتها.. مفقود.. مفقود)

* * *

لكن هذا الشعر.. على جمال صوره.. وبراعة التقاطه.. وسلاسة وعذوبة ألفاظه، لم يحملني على إعطائه صفة التقدير التي يستحقها دون شك، ولكن عندما خرج من فردوس المرأة أو قفصها.. وحديث الحب وليالية والسمراوات والشقراوات وكتب قصيدته: «هوامش على دفتر النكسة».. بعد كارثة يونيه ١٩٦٧م.. قائلاً:

(يا وطني الحزين
حولتني بلحظة

من شاعر يكتب «شعر الحب» والحنين
لشاعر يكتب بالسكين)

.. كان وكأن ملايين القراء العرب... ينتظرون قصيدته.. ملحمته، وينتظرون عودته من عالم المرأة والحب والحنين إلى تلك الكتابة بالسكين.. ليفاجئه.. كما فاجأ - العالم كله - نبأ وفاة (عبدالناصر) الصاعق وغير المتوقع.. بعد دقائق من وداعه لآخر الزعماء العرب، الذين لبوا دعوته لحضور القمة العربية الطارئة في ٢٧ سبتمبر ١٩٧٠م لـ (احتواء) الصراع الدموي الذي اندلع بين الأردنيين و(المقاومة) فيما عرف آنذاك بـ (أيلول الأسود).. فيتدفق حزنه ودمعه بتلك القصيدة التي تعتبر بحق واحدة من أروع المراثي العربية وأعظمها.. وهو يقول بـ (دراميته) ووعيه السياسي لما في صدور البعض من العرب:

(قتلناك.. يا آخر الأنبياء
قتلناك..
ليس جديداً علينا
اغتيال الصحابة والأولياء
فكم من رسول قتلنا..
وكم من إمام..
ذبحناه وهو يصلي صلاة العشاء
فتاريخنا كله محنة
وأيامنا كلها كربلاء..

* * *

قتلناك..

يا جيل الكبرياء

وآخر قنديل زيت..

يضيء لنا في ليالي الشتاء

قتلناك نحن بكلتا يدينا

وقلنا المنية..

لماذا قبلت المجيء إلينا؟

فمثلك كان كثيراً علينا..

سقيناك سُمَّ العروبة حتى شبعت..

رميناك في نار عمان.. حتى احترقت

أريناك غدر العروبة حتى كفرت

* * *

لماذا ظهرت بأرض النفاق..

لماذا ظهرت؟

فنحن شعوب من الجاهلية

ونحن التقلُّبُ

نحن التذبذبُ..

والباطنية..

نبايع أربانا في الصباح

ونأكلهم حين تأتي العشيَّةْ)

.. لتصادفه بعد شهور قليلة - في الخامس عشر من شهر يناير من عام ١٩٧١م - مناسبة (ذكرى ميلاد عبدالناصر) الواحدة والخمسين، والتي جرى الاحتفال بها بصورة شخصية ورسمية لم تعرفها (مصر) طوال حياتها رغم الموت الذي غيب صاحبها.. لتنكأ (الذكرى) جرحه الذي لما يندمل على فقد (الزعيم)، فيشسيد به وبـ (زمانه) وهو يبكيه.. ويبكيه وهو يشيد به وبزمانه في واحدة من روائعه العروبية النزارية.. قائلاً:

(زمانك بستان وعصرك أخضر
وذكراك عصفور من القلب ينقر
ملأنا لك الأقداح، يا من بحبه
سكرنا، كما الصوفيُّ بالله يَسْكَر
دخلت على تاريخنا ذات ليلة
فرائحة التاريخ مسك وعنبرُ
تناديك من شوق إليك مآذن مكة
وتبكيك يا حبيبي بدر وخيبر
ويبكيك صفصاف الشام وورده
ويبكيك زهر الغوطتين ودمرُ
أبا خالد.. أشكو إليك مواجعي
ومثلي له عذر ومثلك يعذر)

.. لكن وقبل أن ينقضي عقد السبعينات ورغم نصر أكتوبر العظيم - عام ١٩٧٣م - إلا أن السادات - الذي خلف الزعيم -

أخذ يسعى بصورة لاهثة لتحقيق (سلام جائر) مع (إسرائيل) برعاية أمريكا جيمي كارتر، ليعطي إسرائيل السلام الذي تريده بخروج القوة العربية الوحيدة القادرة على التصدي لـ (طغيانها) و(عدوانها) المستمر على (كل) العرب.. دون أن تسترد مصر كامل أراضيها إلا في أوائل الثمانينات، أما فلسطين والفلسطينيون.. وهم الحلقة الأضعف فقد داستهم غوغائية الاحتلال الإسرائيلي المدعوم أمريكياً.. لأنهم تخلفوا عن لقاء فندق ميناهاوس.. كما كان يقول السادات (!!) لينقسم العرب إلى قسمين: أقلية قليلة مع مصر السادات.. وأكثرية كاثرة ضدها.. حتى هاجر مقر الجامعة العربية من (القاهرة) قلب العروبة النابض إلى (تونس)، وأخذت تمضي السنون.. إلى أن جاء عام ١٩٨٥م.. عام (ذكرى) مرور أربعين عاماً على قيام (الجامعة العربية) والعرب في أسوأ حالاتهم: انقساماً وتشرذماً وغدراً ببعضهم البعض.. لينوح (نزار) - وقد دعته (أمانة) الجامعة للمشاركة في احتفالاتها ب (الذكرى الأربعينية) لقيامها - في قصيدته التي ألقاها في ليلة الاحتفال.. وبعد خمسين بيتاً من مطلعها قائلاً:

(أنا يا صديقتي متعب بعرويتي
فهل العروبةُ لعنةٌ وعقابُ
أمشي على ورق الخريطة خائف
فعلى الخريطة كلنا أغرابُ
أتكلم الفصحى أمام عشيرتي

وأعيدُ ولكن ما هناك جوابُ
لولا العباءات التي التفوا بها
ما كنت أحسب أنهم أعرابُ)

.. ليطلق بعد سنوات قليلة من عودته من (تونس) أضخم منجنيق شعري عرفه الشعر والشعراء في ذلك (التقرير السردي) عن (دولة قمعستان)، والذي قذف به من عاصمة البحرين «المنامة»، والذي قال فيه ما لم يجرؤ أحد على قوله من قبل.. بادئاً تقريره بقوله:

(هل تطلبون نبذة صغيرة عن أرض قمعستان
تلك التي تمتد.. من شمال أفريقيا.. إلى بلاد نفطستان
تلك التي تمتد.. من شواطئ القهر.. إلى شواطئ القتل
إلى شواطئ السحل.. إلى شواطئ الأحزان
وسيفها يمتد من مدخل الشريان إلى الشريان
ملوكها يقرفصون فوق رقبة الشعوب بالوراثة
وأول البنود في دستورها،،
يقضي بأن تلغى غريزة الكلام في الإنسان
الله... يا زمان)

.. في (موضحاً) ماهيته.. قائلاً:

(هل تعرفون من أنا؟
مواطن يسكن في دولة قمعستان
مواطن يحلم في يوم من الأيام أن يصبح في مرتبة الحيوان

مواطن يخاف أن يجلس في المقهى..
لكي لا تطلع الدولة من غياهب الفنجان
مواطن يخاف أن يقرب زوجته
قبيل أن تراقب المباحث المكان
مواطن أنا من شعب قمعستان
أخاف أن أدخل أي مسجد
كي لا يقال إني رجل يمارس الإيمان
كي لا يقول المخبر السري
أني كنت أتلو سورة الرحمن
الله... يا زمان)

.. فـ (منتهياً) إلى قراره الإنساني النبيل بـ (العصيان).. قائلاً:

(يا أصدقائي:
إنني مواطن يسكن مدينة ليس بها سكان
ليس لها شوارع.. ليس لها أرصفة
ليس لها نوافذ.. ليس لها جدران
ليس بها جرائد..
غير التي تطبعها مطابع السلطان
عنوانها؟ أخاف أن أبوح بالعنوان
كل الذي أعرفه..
أن الذي يقوده الحظ إلى مدينتي.. يرحمه الرحمن
يا أصدقائي:

ما هو الشعر.. إذا لم يعلن العصيان
وما هو الشعر.. إذا لم يُسقط الطغاة.. والطغيان
وما هو الشعر.. إذا لم يحدث الزلزال.. في الزمان والمكان؟
وما هو الشعر.. إذا لم يخلع التاج الذي يلبسه كسرى أنوشروان؟
من أجل هذا أعلن العصيان)...

.. ليبلغ (نزار) بتقريره هذا مرحلة الذوبان بينه وبين «قضيته» في الدفاع عن أزمة الإنسان ومآسي الأوطان.. حتى لم يعد يعرف أحدٌ: أين الشاعر وأين الإنسان..؟ فقد أصبح الإنسان هو الشاعر.. والشاعر هو الإنسان.!! وقد كانت تلك اللحظة واحدة من أسطع وأعظم لحظات حياته.

* * *

لقد عاش (نزار) في زمن عمالقة الشعراء العرب في القرن العشرين إجمالاً.. في زمن الرصافي، والزهاوي والجواهري، والبارودي، وشوقي، وجبران، ومطران، وحافظ، والشناوي، وشحاتة، والعواد.. ولكنه تقدمهم جميعاً عندما انتهى به إيمانه إلى خندق الدفاع عن قضايا الإنسان والحريات والأوطان.. بقلم عربي مبين، وبفكر عز نظيره، وبشجاعة قل مثيلها.. ليحلق في سماء الشعر كوكباً لا ككل الكواكب.. وشمساً لا ككل الشموس، وهو ما أعطاه (الصدارة)، ليأخذ مكانه في قطار الخالدين منهم.